تَنوّع ثقافيّ
لا تعَدُّديَّة ثقافيَّة

د. فردريك معتوق



منشورات
جرّوس - برس

الطبعة الأولى
كانون الاول
١٩٨٤

تلفون : ٦٢٣٦٢٦
٦٢٧٧٢٤

مقدمة

تلعب المفاهيم دوراً اساسياً على صعيد حياة البشر. ولهذه الظاهرة أمثلة عديدة في التاريخين القديم والحديث.

فالايديولوجيات ــ أي المنظومات الفكرية المنبثقة من نظرة للواقع تتناسب مع مصالح فئة اجتماعية في السلطة أو تهدف الى بلوغ هذه الأخيرة ــ تزدحم بالمفاهيم المركبّة. لذلك، فالمفهوم المنبثق عن واقع البشر اساساً يعود فيؤثر جدلياً على هذا الواقع. وهنا تقوم عمليات اءلاقحام التي نطلق عليها صفة الايديولوجية. فاستخدام المفهوم في إتجاه معيّن يعطي هذا الأخير شحنة نفسية ــ اجتماعية تستفيد منها الأطراف الواقفة وراء عملية اءلاقحام.

ومن المفاهيم الخطيرة التي برزت مع الحرب في لبنان مفهوم هويّة الثقافة اللبنانية. فجاء من يقول بوجود ثقافات لمجرّد اعتباره ان الطوائف المختلفة هي في حالة تنافر سياسي. فتسيّس هكذا مفهوم الثقافة واستخدمته الطوائف الدينية واحزابها في بنية تحليل معمّم على المجتمع.

فمن مجتمع لبناني واحد طالما تغنّى الجميع بطابعه الفريد طُرحتْ مجتمعات عدة؛ ومن ثقافة واحدة فقد توصّل الطارحون الى ثقافات عدّة. وهكذا أضحى مفهوم الثقافة أسير منظومات فكرية هو في الأساس بعيد عنها.

إلّا ان الواقع ينطق بعكس ما تقوله هذه الفكرة. فهو، إن استنطقناه عن طريق الأبحاث السوسيولوجية، يؤكد على وحدة الأذواق الثقافية في لبنان وفي أوساط المهاجرين اللبنانيين. فالثقافة اللبنانية موجودة، وحقيقتها الميدانية، القائمة على عنصر الوحدة، تحرق اجنحة اصحاب المفاهيم المزيّفة.

وهذا الكتاب، الذي يجمع سلسلة مقالات نُشرتْ في صحف ومجلّات محلية، انما يهدف الى الكشف عما يقوله الواقع السوسيولوجي. حيث ان مفهوم الثقافة، بالمعنى الانتروبولوجي للكلمة، ينبع اساساً من هذا الواقع وليس من عالم الأفكار الذي مات منذ عهد بعيد.

وميزة الحقل السوسيولوجي الشمالي في لبنان (والذي إنطلقنا منه في البحثين الأولين) هو انه يشكّل صورة مصغرّة عن المجتمع اللبناني. فهو يتميّز بتنوّع ثقافي شبيه بالتنوّع الموجود على صعيد الوطن ككل.

وتصحيح ما قيل في مجال الثقافة في لبنان، إنطلاقاً من حياة اللبنانيين الثقافية، يطرح نفسه كضرورة فكرية هامة، حيث اننا نعيش حالياً عند منعطف تاريخي مصيري، بكل ما للكلمة من معنى.

والمجازفة بتركيب المفاهيم قد تؤدي بنا الى المجازفة بما هو أغلى... أي بالوطن.

١ ــ حول الاذواق التلفزيونية الواحدة

٢ ــ حول معارض الكتاب وعبرتها

٣ ــ لا للتعدّدية الثقافية، نعم للتنوّع الثقافي !

٤ ــ الاصالة والزيف في المفاهيم الثقافية.

١ ـ حول الأذواق التلفزيونية الواحدة

لا شك ان كلنا لاحظ ان وسائل الاعلام تلعب دورا متزايد الاهمية في حياتنا اليومية. لكننا نادرا ما نلاحظ اننا تكيفنا مع وسائل الاعلام بشكل شبه كلي. الى درجة اننا اصبحنا جيلا يميز عن جيل ابائنا وجيل اجدادنا من حيث اننا نحمل بصمات عميقة لوسائل الاعلام المعاصرة.

تشمل وسائل الاعلام الراديو والسينما والتلفزيون والمطبوعات. (تضيف اوساط الفتيكان الى هذه الوسائل الاربع وسيلة اعلام خاصة هي المسرحيات، كوميدية كانت ام تراجيدية).

سننصب، في هذا البحث المتواضع، على تحليل الوسيلة التي تلعب حالياً الدور الاول في لبنان. الا وهي التلفزيون.

ومن اجل عدم الاسترسال في الكلام العام سنحصر اهتمامنا في واقع هذه الوسيلة الاعلامية خلال الفصل الاول من العام ١٩٨٢. لاجئين الى نتائج بحث ميداني قمنا به في محافظة الشمال خلال هذه الفترة.

تجدر بنا الاشارة هنا الى المعرفة التلفزيونية باتت تكون حاليا شكلا من اشكال المعرفة المعاصرة من حيث انها قد لقنتنا عددا من النماذج المعرفية اصبحنا، من خلالها، ننظر الى انفسنا والى العالم الخارجي، وميزة هذه العملية انها تمّت بصمت، دون ان نشعر بها ودون ان نعيها على حقيقتها، اخترقتنا وسيلة الاعلام التلفزيونية اختراقا تاماً وفرضت نفسها علينا بشكل لم نكن نتصوره للوهلة الاولىء ولذلك اسباب عديدة سنعالجها فيما بعد.

الخصائص والمميزات العامة

١ ـ توزيع الحلقات والتوجه العام : لو اخذنا فترة المساء على البرنامجين الاول والثاني في تلفزيون لبنان نلاحظ ان مدة البث الاجمالية تبلغ ٣٥ ساعة × ٢، اي ٧٠ ساعة اسبوعيا (من الساعة السادسة والنصف مساء حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا من كل يوم)

تتوزع الحلقات المبثة على الشكل التالي :

(أ) تسلية ومنوعات غربية وعربية : ١/٢ ١٣ ساعة؛ ١٩,٣ ٪، منها ١٠ غربي و ١/٢ ٣ محلي.

(ب) مسلسلات عربية ومسرحيات مصرية : ١/٢ ١٣ ساعة؛ ١٩,٣ ٪.

(ج) مسلسلات اميركية وفرنسية : ١٨ ساعة؛ ٢٥,٧ ٪.

(د) برامج للاطفال : ١/٢ ١١ ساعة؛ ١٦,٤ ٪ منها ٩ غربي و ١/٢ ٢ محلي.

(ه) برامج اجتماعية وسياسية وعلمية : ٦١/٢ ساعة؛ ٩,٣ ٪، منها ١/٢ ١ غربي و ٥ محلي.

(و) الاخبار : ٧ ساعات؛ ١٠٪.

المجموع : ٧٠ ساعة ؛ ١٠٠٪.

نلاحظ من خلال هذا الجدول، بادىء ذي بدء، ان ساعات البث المستوردة من البلدان الغربية تشكل ٥٥ ٪ من مجمل ساعات البث اللبناني (١/٢ ٣١ ساعة من اصل ٧٠). ان الفارق البسيط في عدد

ساعات البث (١٠ ٪) هو معبّر بحد ذاته، فهو يشير الى ان الصناعة التلفزيونية المحلية والعربية، مهما كان تقويمنا النوعي لها، هي واقع لا يمكن تجاهله. تحتل ساعات البث المستوردة من البلدان الغربية موقع الصدارة، بيد ان ساعات البث المنتجة محليا وعربيا تشكل منافسا جديا بالنسبة لها.

٢ ــ التوجه العام : الملاحظة الثانية التي يمكننا تسجيلها هي ان التوجه العام للحلقات التلفزيونية في لبنان يطغى عليه طابع التسلية والمنوعات. اما الحلقات الاخبارية والسياسية والاجتماعية والعلمية فهي أقل شأنا من الفئة الاولى.

ويتضح لنا ذلك في الجدول التالي :

ــ حلقات تلسية وتمضية وقت

تسلية ومنوعات غربية وعربية : ١٩,٣ ٪.

مسلسلات عربية ومسرحيات مصرية : ١٩,٣ ٪.

مسلسلات اميركية وفرنسية : ٢٥,٧ ٪.

برامج للاطفال : ١٦,٤ ٪.

المجموع : ٨٠,٧ ٪.

ــ حلقات اخبارية واجتماعية وسياسية

برامج اجتماعية وسياسية وعلمية : ٩,٣ ٪.

اخبار : ١٠ ٪.

المجموع : ١٩,٣ ٪.

المجموع العام : ١٠٠ ٪.

حصة الاسد اذا هي لصالح الفئة الاولى. ويبدو، في هذا المجال، ان التوجه العام للحلقات التلفزيونية في لبنان يشبه التوجه الذي يسلكه التلفزيون في الولايات المتحدة حيث تحتل برامج التسلية من ٦٠ الى

٧٠ ٪ من اجمالي ساعات البث. اما في اليابان فتحتل هذه الفئة من الحلقات ٤٢٪ من اجمالي ساعات البث. وفي فرنسا، تحتل حلقات التسلية ٢٩ ٪ فقط من اجمالي الحلقات. يتمثل، بالتالي، التلفزيون في لبنان، بتلفزيونات الدول الرأسمالية الكبيرة، مع تفوق بسيط (١٠ ٪ بالنسبة للولايات المتحدة) في عدد الساعات المخصصة للتسلية ولتمضية الوقت. وبالمناسبة، لا بد هنا من الاشارة الى ان ساعات البث المستوردة من الغرب، في التلفزيون اللبناني، تصب. في غالبيتها، في هذه الفئة من الحلقات، كما يتضح لنا من خلال الجدول التالي :

ــ موقع ساعات البث المنتجة في الغرب

في حلقات التسلية وتمضية الوقت : ٣٧ ساعة؛ ٩٦ ٪

في الحلقات الاخبارية والاجتماعية والعلمية : ١/٢ ١ ساعة؛ ٤ ٪

المجموع : ١/٢ ٣٨ ساعة؛ ١٠٠ ٪.

كما يبدو ان هذا التوجه العام ليس ميزة الفصل الاول من العام ١٩٨٢ فحسب، بل انه من ثوابت السياسة الاعلامية التي يدرج عليها التلفزيون في لبنان، فلو حللنا توزيع حلقات التلفزيون خلال الفصل الاول من العام ١٩٧٨، نلاحظ انه ينسجم مع التوزيع الحالي.

تتوزع هذه الحلقات على الشكل التالي (مع الاشارة الى ان عدد ساعات البث انذاك، خلال فترة المساء، كان ٦٣ ساعة ــ اي بمعدل ١/٢ ٤ ساعة يوميا ــ على البرنامجين الاول والثاني).

(أ) تسلية ومنوعات غربية وعربية : ١/٢ ١١ ساعة؛ ١٨,٣٪.

(ب) مسلسلات عربية ومسرحيات وافلام مصرية : ١/٢ ١٧ ساعة؛ ٢٧,٨ ٪.

(ج) مسلسلات اميركية : ١٨ ساعة؛ ٢٨,٦ ٪.

(د) برامج للاطفال : ٧ ساعات؛ ١١,١ ٪.
(هـ) برامج اجتماعية وسياسية : ٢ ساعتان؛ ٣,١ ٪.
(و) أخبار : ٧ ساعات؛ ١١,١ ٪.
المجموع : ٦٣ ساعة؛ ١٠٠ ٪.

ـــ التوزيع
حلقات التسلية وتمضية الوقت : (أ) + (ب) + (ج) + (د) = ٨٥,٨ ٪.
الحلقات الاخبارية والاجتماعية : (هـ) + (و) = ١٤,٢ ٪.
المجموع : ١٠٠ ٪.

نلاحظ اذا ان نسبة حلقات التسلية (على اشكالها : منوعات، مسلسلات، الخ.) وان إنخفضت بنسبة ٥,١ ٪ في العام ١٩٨٢، إلا انها بقيت اعلى من ٨٠ ٪ خلال عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٢. فهي تحتفظ بحصة الاسد. في الواقع، ليس في ذلك صدفة فإن التوجه العام للتفلزيون في لبنان، هو باستمرار، تسلية المشاهد.

هناك تناسق بنبوي بين الموضوعات التي تُطرح في الحلقات (أ)، (ب)، (ج) و (د). ففي الفئة الاولى تدور الحلقات اجمالا حول الشباب الاميركي المرح، حول الاسفار الترفيهية، حول الموسيقى والاغاني الحديثة، حول حماس مباريات كرة القدم وحول الاسفار الفضائية الوهمية. اما في الفئة (ب) فالموضوع يتمحور باستمرار حول العاشق والعاشقة ومشكلات الحب. في الفئة (ج) نشاهد البطل الاميركي والعائلة ونموذج الحياة الاميركية المعاصرة. اما في حلقات الفئة (د) فنحن امام بعض نماذج من الحياة الاميركية المنقولة الى حيوانات انثروبومورفية، بلغة الصور المتحركة التي يشغف بها الاطفال.

فالجامع المشترك لجميع هذه الحلقات هو إبعاد المشاهد (وليس المواطن حيث ان هنا ايضا ميزة من ميزات الاسلوب التلفزيوني. فكلنا امام الشاشة الصغيرة مشاهدون، مهما كانت مهنتنا ومهما كان سننا وموقعنا في الحياة الاقتصادية) عن واقعه الاجتماعي الموضوعي، بابعاده الاقتصادية. مع اقتراح شبه الزامي باقتباس نموذج الحياة الاميركية (وان ارتدى هذا الاقتراح شكل الزي العربي او المحلي) وما يستتبع هذا النموذج من نمط عيش اقتصادي يتلاءم معه

اما موضوعات حلقات الفئة (هـ) و (و) فهي تختلف. من حيث المنحى، عن الاولى، حيث ان حلقات الفئة (هـ) هي عبارة عن محاولات لوصف ما نعاني منه من مشاكل سياسية واجتماعية، اما حلقات الفئة (و) فإنها تعرض لنا وجهة نظر السلطة في الامور السياسية العامة.

٣ ـــ نقطة التقاء العائلة بكاملها : من مميزات التلفزيون انه يشكل الجامع المشترك للعائلة كلها. فمن الساعة السادسة والنصف حتى الساعة السابعة والنصف تعرض حلقات الاطفال، من الساعة السابعة والنصف حتى الساعة الثامنة والنصف تعرض حلقات الشباب ومن الساعة الثامنة والنصف حتى الساعة الحادية عشرة والنصف تعرض حلقات الشباب والراشدين ـــ فلكل فئة من الاعمار حلقاتها المميزة، يضاف الى ذلك ان عددا من الحلقات مصمم خصيصا لاستقطاب جميع فئات الاعمار.

وثمة ملاحظة اضافية وهامة لا بد من ذكرها. وهي ان الحلقات تتوجه، بصفة عامة، الى الذكور والاناث معا، هذا ما يزيد من ارتباط

العائلة في عملية المشاهدة. فالسهرات التي كانت تتم سابقا، غالبا ما كانت تجمع فئات مختلفة. للرجال سهرتهم الخاصة، وكذلك بالنسبة للنساء والاطفال. إختفت هذه الحواجز المعنوية مع مجيء التلفزيون، حيث أصبح الجميع يلتقون على متابعة حلقات التلفزيون.

يعتبر، على سبيل المثال، ٦٦ ٪ من الاميركيين ان التلفزيون يمتن الروابط العائلية بجمعه لافرادها (حسب كتاب « الراديو، والتلفزيون والمجتمع » منشورات اليونسكو، ١٩٥٢، ص ٣٤٢) ليس في ذلك ما يثير الاعجاب. فالتلفزيون يشكل العنصر الافضل لتمضية اوقات الفراغ في البيت. ومع الاشتراك في تمضية الوقت في إطار مكاني واحد ينشأ احتكاك عائلي اكبر، ويزداد تبادل الاراء والنقاش.

لم .تعد المقاهي تستقطب الرجال مساء، كما كانت تفعل في عهد ما قبل التلفزيون. وقد تقلص إرتياد المقاهي الى درجة ان عددا منها، في اوروبا، قد استبدل الراديو التقليدي بجهاز تلفزيوني ملوّن، من اجل إبقاء الرجال وقتا اكبر في المقهى.

٤ ـــ الزامية الحضور الكامل عند المشاهد : يتوجه الراديو الى حاسة السمع بصورة اساسية (من هنا غلبة عنصر الموسيقى فيه على باقي العناصر، ما عدا فترات الاخبار) يمكن للمستمع الاصغاء والعمل في وقت واحد. وهذا ما يحصل عادة : النسائق يعمل وهو يستمع الى الراديو، ربة المنزل تعمل وهي تستمع الى الراديو، الخ.

اما التلفزيون فهو يتوجه الى حاستي السمع والبصر. لذا فهو يفترض الحضور الكامل عند المشاهد، حيث انه يصعب العمل (ما

عدا القيام ببعض الحركات البسيطة) والانتباه في وقت واحد الى ما يجري على شاشة التلفزيون. من هنا تنشأ هذه العلاقة الحميمة بين المشاهد والحلقة التلفزيونية. فهو يعيشها. اضافة الى انه في حالة نفسية تختلف جدا عن حالة المستمع الى الراديو، من حيث ان المسلسلات التي يتابعها على الشاشة الصغيرة تجعله يرى الحلقة، في كل مرة، بزخم نفسي اكبر، بسبب تراكم المواقف العاطفية التي تولدت عنده من جراء مشاهدته للحلقات السابقة، فكل حقبة مشاهدة تولد تبلورا لعملية التقبل عند المشاهد، اذ يتعلق اكثر فأكثر بالمشاهدة التلفزيونية ويتعود عليها في وعيه وفي لا وعيه. من هنا ينشأ هذا الادمان المرضي الذي يلاحظه الجميع عند الاطفال.

لا نستطيع، بالمقابل، لحظ المسائل نفسها عند المستمع « الراديو فوني » فهو يستطيع فصل نفسه عن برنامجه بسهولة ولا تنشأ عنده هذه العلاقة الحميمة التي نلاحظها عند المشاهد التلفزيوني.

فالتلفزيون هو صندوق الاحلام المعاصر. وهذا ما يفسر انتشاره في جميع الاوساط، وخاصة في منازل ذوي الدخل المحدود، فهو صندوق سحري يبدأ العمل مساء ينسينا، الى حد ما، هموم العمل المتعب خلال النهار.

تعلق الاطفال بالتلفزيون لا يقل عن تعلق الشبان او الراشدين به. سنلاحظ ذلك ميدانيا في القسم الثاني من هذا البحث.

لم ينافس التلفزيون الراديو فحسب، بل نافس ايضا السينما عينها. حيث إضطرّت شركات التوزيع الكبيرة، في الولايات المتحدة مثلا، فرض قانون يقضي بعدم السماح للتلفزيون بعرض الافلام قبل مضي خمسة اعوام على ظهورها. فالمشاهد التلفزيوني ميّال لعدم إرتياد

قاعات السينما اذا تأمنت له امكانية مشاهدة الافلام على شاشته الخاصة.

٥ ــ الطابع الايعازي والطابع التوجيهي : بما ان جهاز التلفزيون هو في موقع المرسل، وبما ان المشاهد هو في موقع المستقبل ينشأ، بالضرورة، عن هذه العلاقة خط اعلامي يمتاز حينا بالطابع الايعازي وحينا بالطابع التوجيهي المباشر. حيث ان المبادرة تنطلق في الاساس من الحلقة التلفزيونية، وعلى المشاهد ان يستقبل وان يهضم المعاني والارشادات، المباشرة وغير المباشرة، الكامنة في هذه الحلقة.

ان الحلقات التي يغلب عليها الطابع الايعازي هي حلقات التسلية والمنوعات الغربية والعربية (أ) والمسلسلات العربية والمحلية (ب) والمسلسلات الاميركية والفرنسية (ج) وبرامج الاطفال (د) فهي مليئة بالنماذج الايديولوجية التي تُقترح على المشاهد اقتراحا الزاميا، نمط الحياة الاميركية مع كل ما يفترضه من مواقف اقتصادية مباشرة وغير مباشرة هو العنوان الاساسي لهذه الاقتراحات، كما ان نماذج الاستشراق هي ايضا من النماذج الاساسية التي يحاول ترسيخها في الاذهان.

هناك نوعان من هذه النماذج : نوع يعرّفنا، معشر الشرقيين، على ماضينا، عبر افلام هوليود البغدادية. ونوع آخر ناتج عن هضم معادلات الاستشراق التقليدية عبر اعتبار ان ميزة الانسان الشرقي هي طغيان العاطفة عنده على العقل (المسلسلات العاطفية المحلية والعربية). ويبدو ان لهذا التثاقف نجاحا كبيرا نشأ عن تعود المشاهدين متابعة الافلام العربية العاطفية.

اما الحلقات التي يغلب عليها الطابع التوجيهي، أي حيث التوجيه والارشاد مباشران، فهي الحلقات الاجتماعية والسياسية (هـ) وفترات الاخبار (و) وصفحات الاعلان.

ليس صدفة، طبعا، ان يقترن التوجيه الاجتماعي والسياسي بالتوجيه ذي المردود الاقتصادي فكلاهما مرتبطان جدليا.

ان الطابع التوجيهي ليس شيئا بالضرورة، غير ان ميزته هي انه يهدف الى اقناع المشاهد مسبقا بسلامة وجودة الطرح الذي تقدمه له الحلقة او الصفحة الاعلانية، فهو مكشوف الوجه. ولعل هذا هو السبب الدافع بالبلدان النامية الى عدم الاكثار من استعماله. حيث ان استعماله الصحيح (والذي يؤمن لصاحبه موافقة المشاهد) يتطلب إتقان اللعبة الديمقراطية. لذا، فالبلدان النامية غالبا ما تفضل الاكتفاء بالتوجيه الاخباري (النشرة وملحقها) والهروب الى الامام نحو حلقات التسلية وتمضية الوقت التي تحظى عادة بحصة الاسد فيها.

التلفزيون صندوق الأحلام المعاصر

اول بحث ميداني لبناني
عن مشاهدي التلفزيون

اجرينا بحثاً ميدانياً في محافظة الشمال حول التلفزيون فوجئنا على اثره بواقع غير الذي كنا نتصوره.

في الحقيقة، علينا ان نتنبه دائماً للافكار والتصورات المسبقة حيث ان الواقع الاجتماعي في حالة تبدل مستمر، من هنا اهمية اجراء الابحاث الميدانية. فهي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا، من خلالها، رصد حركات التبدل في الواقع، حيث اننا غالباً ما نكتشف، على اثر هذه الابحاث، ان الواقع السوسيولوجي هو غير الواقع الاجتماعي الذي كنا نسلم بصحته قبل البحث.

لقد اجرينا بحثاً بالعينة. وزعت خلاله الف استمارة على اشخاص من محافظة الشمال يتوزعون على فئات الاعمار التالية : ١٤ ــ ١٨ سنة، ١٩ ــ ٤٠، ٤١ سنة وما فوق. وتم توزيع الاستمارات على الشكل التالي : ٦٠٠ في القضية الكورة والبترون وبشري وزغرتا ــ الزاوية وعكار، و ٤٠٠ في قضاء طرابلس. أجري البحث خلال الفصل الاول من العام ١٩٨٢.

* السؤال الاول : هل يوجد تلفزيون في البيت ؟ اسود وابيض ؟ ملون ؟ كانت الأجوبة على الشكل التالي :

	يوجد	لا يوجد	ملون	أسود وأبيض
الكورة	٪٩٨,٣	٪١,٧	٪٣٣,٣	٪٦٦,٧
البترون	٪١٠٠	٪٠	٪٣٣,٨	٪٦٦,٢
بشري	٪٩٨,٢	٪١,٨	٪١٥,٥	٪٨٤,٥
زغرتا ــ الزاوية	٪١٠٠	٪٠	٪٤١,٣	٪٥٨,٧
عكار	٪٩٩,١	٪٠,٩	٪١٣,٦	٪٨٦,٤
طرابلس	٪٩٩,٥	٪٠,٥	٪٤٦,٥	٪٥٣,٥

ان نسبة إقتناء جهاز تلفزيون مرتفعة جداً، اذ انها تبلغ في ادنى حدودها ٩٨,٢ ٪ (بشري) وفي أعلاها ١٠٠ ٪ (البترون ــ زغرتا ــ الزاوية).

وان ارتفاع هذه النسبة بشكل مدهش (تلفزيون في كل منزل) يجد تفسيره في عناصر ثلاثة : أولاً، انتشار التلفزيون واعتباره قطعة من اثاث البيت حاليا. ثانيا، انخفاض اسعار الاجهزة التلفزيونيه بسبب التهريب وبسبب مزاحمة اليابان وتايوان لاوروبا الغربية والولايات المتحدة في هذا المجال. ثالثاً، حالة الحرب التي نعيش منذ اكثر من سبع سنوات والتي تحظر على الفرد ايجاد التسلية خارج منزله.

بالنسبة للاجهزة الملونة، نلاحظ ان نسبتها مرتفعة نسبياً. يمكن تفسير ذلك في مسألة رخص الاجهزة المهربة، كما ان نسب اقتناء هذا النوع من الاجهزة هو بمثابة مؤشر اقتصادي، حيث اننا نلاحظ ان قضاء طرابلس هو الذي يحظى بأكبر نسبة (٤٦,٥ ٪، أي ما يقارب نصف الاجهزة الموجودة)، يليه قضاء زغرتا ــ الزاوية (٤١,٣ ٪) والمعروف عن هذين القضائين انهما اثرى اقضية محافظة الشمال اقتصاديا. اما قضاء بشري (١٥,٥ ٪) وعكار (١٣,٦ ٪) فهما يتميزان بادنى النسب في اقتناء الاجهزة الملونة، وهذا ما يرتبط بوضعهما الاقتصادي.

* السؤال الثاني في الاستمارة كان التالي : ها شاهدت التلفزيون مساء أمس ؟ توزعت الاجوبة على هذا السؤال على الشكل التالي :

	نعم	كلا
الكورة	١٠٠٪	٠٪
البترون	١٠٠٪	٠٪
بشري	١٠٠٪	٠٪
زغرتا ــ الزاوية	٩٨,١٪	١,٩٪
عكار	١٠٠٪	٠٪
طرابلس	٨٥,٢٪	١٤,٨٪

ان ما يلفت الانتباه في هذه الاجوبة هو ارتفاع نسبة المشاهدة بصفة عامة. فهي كبيرة جداً في قضاء الكورة (١٠٠ ٪) والبترون (١٠٠ ٪) وبشري (١٠٠ ٪) وعكار (١٠٠ ٪) وزغرتا ــ الزاوية (٩٨,١ ٪) وهذا ما يفسر الدور الاساسي الذي يلعبه التلفزيون حالياً في لبنان ليس على المستوى الاعلامي فحسب، انما على المستوى المعرفي ايضا وسواء شئنا ام ابينا، فهو الوسيلة الاكثر شعبية على امتداد اقضية الشمال.

يتفاعل الناس معه، على اختلاف اعمارهم، اكثر مما يتفاعلون مع الكتاب او الصحيفة او الراديو. ويبدو ان التلفزيون قد اكتسح ساحة الاذهان بسبب مضي لبنان في نموه الاقتصادي من جهة (على الصعيد المالي على الاقل) وبسبب حالة الحرب من جهة ثانية : فالحرب قد عجلت في عملية انتشار الاجهزة التلفزيونية، كما انها عجلت في عملية توسيع رقعة المشاهدين (يبلغ معدل المشاهدة العام في محافظة الشمال ٩٧,٢ ٪) عبر بيع اجهزة التلفزيون والفيديو

دون اخضاعها للرسوم الجمركية، وعبر ابقاء الناس في منازلهم، مما ولد عند الناس رغبة عميقة في فك هذا الحصار الخارجي باللجوء الى « صندوق الاحلام المعاصر » على الصعيد الداخلي.

اما نسبة المشاهدة التي يلحظها قضاء طرابلس والتي هي ادنى من باقي الاقضية فيمكن تفسيرها في اطار معادلة الريف ــ المدينة. حيث ان وسائل التسلية تندر في الأقضية النائية. اما في المدينة فهناك السينمات ووسائل الترفيه المتعددة نسبياً اذا ما قورنت بوضع القرى (الصغيرة منها والكبيرة) التي تغلق ابواب بيوتها عند او اشارة لهبوط الليل و « تتسلى » على التلفزيون.

* اما السؤال الثالث فكان الآتي : ما هو البرنامج الذي تابعته ؟

اتت الاجوبة على الشكل التالي

	البرنامج الاول	البرنامج الثاني	البرنامج الثالث	غيره
الكورة	٦٣,٣٪	٢٣,٤٪	٠٪	١٣,٣٪
البترون	٤٥٪	٤٦,٢٪	٣,٨٪	٥٪
بشري	٦٨,٢٪	٢٩,١٪	٢,٧٪	٠٪
زغرتا ــ الزاوية	٥٨,١٪	٣٦,٣٪	٣,١٪	٢,٥٪
عكار	٤٩,١٪	٣٣,٦٪	٠,٩٪	١٦,٤٪
طرابلس	٥١,٢٪	٢٧,٣٪	٣,٥٪	١٨٪

ان ما يلفت الانتباه في هذا الجدول هو ارتفاع نسبة مشاهدة البرنامجين الاول (يبلغ معدله العام في المحافظة ٥٥,٨ ٪) والثاني (يبلغ معدله العام في المحافظة ٣٢,٧ ٪)، بالنسبة للبرنامج الثالث ــ باللغة الفرنسية (الذي يبلغ معدله العام في المحافظة ٢,٣ ٪)

تجدر الاشارة هنا الى ان هناك وحدة حال ثقافية، على الصعيد الميداني، بين اقضية البترون وبشري وعكار وزغرتا — الزاوية وطرابلس، على عكس ما قد يترآى للبعض. فالطينة الثقافية لا تبرز تفاوتات نوعية بين قضاء ذي غالبية مسيحية وقضاء ذي غالبية مسلمة. الاذواق موحدة والميول الثقافية والمستوى التعليمي العام متشابه في جميع الاقضية... وكان بالوفاق يأتينا من حيث لا ندري !

اما بالنسبة للذين يشاهدون تلفزيوناً غير التلفزيون اللبناني (المذكور تحت اسم « غيره ») والمقصود هنا التلفزيون السوري، ذلك ان محافظة الشمال لا تلتقط سواه في الشتاء (الفصل الاول من العام ١٩٨٢ بالنسبة لبحثنا)، ان نسبة مشاهدة التلفزيون السوري تتفاوت حسب الاقضية، انها ضعيفة جدا في بشري وزغرتا — الزاوية، وضعيفة في البترون، ومرتفعة نسبياً في الكورة وعكار وطرابلس.

معدلها العام في محافظة الشمال هو ٩,٢ ٪ فقط.

* اما السؤال الرابع فكان التالي : كم ساعة تشاهد التلفزيون يومياً ؟

وقد اتت الاجوبة على الشكل التالي :

لا أشاهد ابداً	أقل من ساعة	من ١ — ٢	من ٢ — ٣	من ٣ — ٤	من ٤ +	معدّل ساعات المشاهدة يومياً
الكورة ٪	٪ ٣,٣	٪٢٠	٪٣٠	٪٢١,٧	٪٢٥	ساعتان و ٥٠ دقيقة
البترون ٪	٪١٠,٦	٪٣٣,١	٪٢٣,٨	٪٢٢,٥	٪١٠	ساعتان و٢٣ دقيقة
بشري ٪	٪ ٦,٤	٪٢٢,٧	٪٣٣,٦	٪٢١,٨	٪١٥,٥	ساعتان و٣٧ دقيقة
زغرتا ـ الزاوية٪	٪١١,٣	٪٣١,٩	٪٣٥,٦	٪١٠,٦	١٠,٦	ساعتان و١٧ دقيقة
عكار ٠ ٪	٪ ٩,١	٪٢٢,٧	٪١٦,٤	٪٣٣,٦	٪١٨,٢	ساعتان و٤٥ دقيقة
طرابلس ٠ ٪	٪٦	٪٢٦	٪٣٠,٢	٪٢٠,٣	٪١٧,٥	ساعتان و٣٧ دقيقة

ما يجب التنويه به هنا وما يؤكد مضمون اجوبة السؤال الاول هو تحول الفرد اللبناني في الشمال (والارجح في لبنان ككل) الى فرد شديد الارتباط بالمشاهدة التلفزيونية فهناك اجماع تام على المشاهدة (١٠٠ ٪ في الاقضية الستة). وقد صرّح الذين لا تلفزيون في منزلهم انهم يتابعون حلقاته عند جيرانهم.

غدت المشاهدة التلفزيونية عملية اساسية، كلمأكل والمشرب والنوم.

بل اكثر من ذلك، فان المشاهدة التلفزيونية قد تحولت الى صلاة المساء المعاصرة. فالفرد منا يكاد لا يذهب الى النوم دون تأدية هذا الواجب الذي تكرست قدسيته بشكل مباشر. فالمشاهدة التلفزيونية قد تغلبت على جميع الممارسات الأخرى (كالمطالعة والكتابة والسهرة التقليدية) بما فيها الممارسات الدينية، واصبحت اكثرها شعبية على الاطلاق.

كما ان نسبة المشاهدة مرتفعة في جميع الاقضية، حيث انها لا تقل عن الساعتين و١٧ دقيقة، لذا يمكننا التأكيد على ان المشاهدة التلفزيونية تحتل جانبا هاماً من الحياة اليومية عندنا.

* اما السؤال الخامس فقد تركّز على اوقات المشاهدة : ما هي اوقات المشاهدة عندك اجمالاً ؟

اتت الاجوبة على النحو التالي :

	الظهيرة	قبل الاخبار	الاخبار	بعد الاخبار
الكورة	١٣,٣٪	٤٥٪	٢٠٪	٢١,٧٪
البترون	١٥,٦٪	١٨,٨٪	٢٣,٧٪	٤١,٩٪
بشري	١٥,٥٪	٢٢,٧٪	١٥,٥٪	٤٦,٣٪
زغرتا ــ الزاوية	١٣,٧٪	٢٦,٣٪	٢٨,٧٪	٣١,٣
عكار	١٧,٣٪	٢٠,٩٪	٢٠,٩٪	٤٠,٩٪
طرابلس	١٢,٥٪	٢١,٥٪	٣١,٥٪	٣٤,٥٪

تبلغ فترة المشاهدة اعلى نسبة بعد فترة الاخبار. غير ان فترة الظهيرة لها ايضا مشاهدوها بنسبة تتراوح بين ١٢,٥ ٪ (طرابلس) و ١٧,٣ ٪ (عكار).

وما يلفت الانتباه في هذا الجدول هو تدني نسبة المشاهدة خلال فترة الاخبار. فهي تتراوح بين ١٥,٥ ٪ (بشري) و ٣١,٥ ٪ (طرابلس). اقل ما يقال في هذه النسب انها متواضعة جدا. فالاهتمام بالاخبار يتروح بين سدس وثلث الاهتمام العام. اما بالنسبة للتفاوت الموجود بين طرابلس وبشري وباقي الاقضية فهو يعود الى معادلة المدينة ــ الريف التقليدية. حيث ان ابن المدينة يشعر بنفسه معنياً اكثر من ابن القرية بالاوضاع السياسية العامة التي تنقلها اليه فترات الاخبار. ان الاخبار السياسية التي تهم ابن القرية هي اخباره المحلية والمتعلقة بزعيم منطقته. اما الاخبار العامة فهي أقل شأنا، في لا وعيه، من اخبار منطقته.

* حاولنا، في السؤال السادس، معرفة مدى تفاعل المشاهد الشمالي مع حلقات التلفزيون. طُرحَ السؤال على الشكل التالي : هل

تتحادث بحلقات التلفزيون مع زملائك او جيرانك او رفاقك ؟

وتوزعت الاجوبة على النحو التالي :

	نعم	كلا
الكورة	٦٦,٧٪	٣٣,٣٪
البترون	٦٨,١٪	٣١,٩٪
بشري	٦٤,٥٪	٣٥,٥٪
زغرتا ــ الزاوية	٦٨,١٪	٣١,٩٪
عكار	٧١,٨٪	٢٨,٢٪
طرابلس	٧٠,٥٪	٢٩,٥٪

ما هو واضح في الاجوبة هو وحدة حال الاقضية الستة. نسبة الاهتمام بالحلقات التلفزيونية تتراوح بين ٦٤,٥ ٪ (بشري) و ٧٠,٥ ٪ (طرابلس). فالجميع تقريباً متفق على الاهتمام، كما اننا نلاحظ ان التلفزيون يفعل في كل المناطق بنفس القوة وبنفس المقدار تقريباً. أيعني ذلك ان للتلفزيون مفعولا موحَّداً ؟

أجل، فلو عدنا الى مسألة الشكل والمضمون نجد ان الشكل يؤثر على المضمون. فتماما كما يظن قارىء الصحيفة ان الصحيفة تكتب كما يفكر هو (في حين ان العكس هو الصحيح) فان برامج التلفزيون قد أوجدت فينا شخصاً، مطيعاً، وموحد الأذواق. ان هذا الشخص (المشاهد النموذجي) الذي لقننا جهاز التلفزيون احترامه الى درجة إقتباسه هو الذي يظهر، بعد فترة، في زي شخصيتنا او في ما نتوهم انه شخصيتنا.

* طرحنا سؤالا اخر حول التقويم العام الذي يعطيه المشاهد للحلقات التي يتابعها. السؤال، السابع، هو الاتي : كيف تجد محتوى البرامج بصفة عامة :

توزعت الاجوبة على النحو التالي :

	مسلّ	مفيد	تافه
الكورة	٨٠٪	١٨,٣٪	١,٧٪
البترون	٥٦,٢٪	٢٨,١٪	١٥,٧٪
بشري	٥٦,٤٪	٢٣,٦٪	٢٠٪
زغرتا ـ الزاوية	٥٤,٤٪	٣٣,٧٪	١١,٩٪
عكار	٥٠,٩٪	٣٧,٣٪	١١,٨٪
طرابلس	٦٨,٨٪	٢٠,٢٪	١١٪

ان الذين يجدون الحلقات مسلية هم الغالبية. وتتراوح نسبتهم بين ٥٠,٩ ٪ (عكار) و ٨٠ ٪ (الكورة).

يأتي بعدهم الذين يجدون البرامج، بصفة عامة، مفيدة. تتراوح نسبتهم بين ١٨,٣ ٪ (الكورة) و ٣٧,٣ ٪ (عكار).

اما الذين يجدون محتوى البرامج تافها أقلية، اذ تتراوح نسبتهم بين ١,٧ ٪ (الكورة) و ٢٠ ٪ (بشري).

لذا، فالتقويم العام للتلفزيون هو تقويم ايجابي (مسلياً، مفيداً). هذا ما يتطابق مع نسبة الاهتمام بالتلفزيون المرتفعة، ومع نسبة المشاهدة العالية في جميع الاقضية الشمالية.

* حاولنا في السؤال الثامن استكشاف الابعاد الاخرى للمشاهدة التلفزيونية عبر معرفة نسبة وجود اجهزة الفيديو في المنازل. كان السؤال :

هل يوجد فيديو في البيت ؟

توزعت الاجوبة على الشكل التالي :

	نعم	كلا
الكورة	١٠٪	٩٠٪
البترون	٢١,٣٪	٧٨,٨٪
بشري	١٧,٣٪	٨٢,٧٪
زغرتا ـ الزاوية	١٧,٥٪	٨٢,٥٪
عكار	٦,٤٪	٩٣,٦٪
طرابلس	٢١٪	٧٩٪

اقل نسبة نجدها في قضاء عكار (٦,٤ ٪) واعلى نسبة في قضاء طرابلس (٢١ ٪) وتصح في هذه الاجوبة الملاحظة الاقتصادية التي ابديناها خلال تحليلنا للسؤال الاول و المتعلق باقتناء الاجهزة الملونة.

* حاولنا، في السؤال التاسع، معرفة مدى استعمال اجهزة الفيديو. طرحنا السؤال الآتي : كم فيلما تشاهد بواسطة الفيديو في الاسبوع ؟ ما هو نوع هذه الافلام ؟

توزعت الاجوبة كالآتي :

	معدل الافلام في الاسبوع	غربي	غربي
الكورة	٤,٥	٪٦٦,٧	٪٣٣,٣
البترون	٤,٧	٪٥٥,٩	٪٤٤,١
بشري	٧	٪٥٧,٩	٪٤٢,١
زغرتاـالزاوية	٤,٢	٪٦٤,٣	٪٣٥,٧
عكار	٣,٤	٪٥٧,٢	٪٤٢,٨
طرابلس	٤,٣	٪٥٨,٣	٪٤١,٧

يتراوح معدل الافلام التي يشاهدها صاحب الفيديو، في الاسبوع، بين ٣,٤ (عكار) و ٧ (بشري).

أما الأفضلية فتعطى للافلام الغربية (اذ يبلغ المعدل العام للمحافظة كلها ٦٠ ٪) وتبلغ نسبة الافلام العربية التي يشاهدها الشماليون على آلات الفيديو ٤٠ ٪.

* يتطرق السؤال العاشر الى اذواق المشاهدين بصفة عامة، طرحت الاستمارة السؤال التالي : ما هي الحلقات التي تفضلها ؟ — طالبة من الشخص المستجوب ثلاثة اجوبة بالتسلسل (مثلا : احب : ١ — « دالاس » ٢ — « لا تقولي وداعاً » ٣ — « ما وراء الاخبار »). ثم قمنا بتصنيف هذه الاجوبة وفرزها، فكانت النتيجة التالية :

	أ	ب	ج	د	هـ	و
الكورة	٪١٠,٦	٪٤٨,٣	٪٢٦,١	٪١,٧	٪١٠,٦	٪٢,٧
البترون	٪١١,٧	٪٣٨,٧	٪٢٣,٧	٪٤	٪١٨,٥	٪٣,٤
بشري	٪١٥,٨	٪٣٦,١	٪١٨,٨	٪٥,٤	٪٢١,٥	٪٢,٤
زغرتاـالزاوية	٪١٠,٦	٪٣٩,٨	٪٢٩,٨	٪٤	٪١٢,٧	٪٣,١
عكار	٪٢٣	٪٣٠,٣	٪١٣,٣	٪٨	٪١٩,٤	٪٦
طرابلس	٪١٩	٪٢٣,٤	٪٢٤,٣	٪٩,٤	٪٢١	٪٢,٩

نلاحظ ان النوع الذي يحتل المرتبة الاولى هو المسلسلات العربية والمحلية ذات الطابع العاطفي (ب). فهي الاولى في سلم الافضليات وفي جميع الاقضية تقريباً. مما يؤكد، مرة اخرى، الوحدة الثقافية العامة في المحافظة التي تتخطى الاعتبارات الاجتماعية والطائفية.

تحتل المرتبة الثانية المسلسلات الاجنبية (ج).

اما المرتبة الثالثة فتحتلها الحلقات الاجتماعية والسياسية والعلمية (هـ)، وهذا ما يدعو الى الارتياح والى تأكيد فكرة هي ان المشاهد اللبناني قادر، بل راغب في ان يتذوق الحلقات الهامة بالنسبة لحياته الاجتماعية، فالنتيجة التي يلحظها الجدول تثبت ان البرامج السياسية والاجتماعية (ما وراء الاخبار، هذا الاسبوع، عالم المرأة، الخ.) لها جمهورها. بالتالي يمكن توسيع رقعة هذا الجمهور بالمزيد من الحلقات المشابهة.

تزاحم حلقات التسلية والمنوعات (أ) الحلقات السياسية والاجتماعية (هـ) غير انها الرابعة في السلم العام. تليها حلقات الاطفال (د) وفترات الاخبار (و).

تبلغ النسبة العامة للذين يحبون تتبع الاخبار ٣,٤ ٪ فقط. ربما

الذين يشاهدونها هم اكثر نسبة وعددا، لكن الذين يحبونها هم فقط ٣,٤ ٪. وفي هذه النتيجة عبرة واضحة.

* وحيث ان همنا كان معرفة نوعية الحلقات التي يرتاح لها المشاهد فقد طرحنا السؤال الحادي عشر التالي : ما هي الحلقات التي لا تحب مشاهدتها ؟

واتتنا الاجوبة على الشكل التالي :

	أ	ب	ج	د	هـ	و
الكورة	٪٣٢,٧	٪١٧,٢	٪١٦,٧	٪١٣,٩	٪١٦,٧	٪٢,٨
البترون	٪٣١,٢	٪٢٢,٢	٪١٦	٪١٠,٨	٪١٨,٣	٪١,٥
بشري	٪٤٢,٤	٪١٩,١	٪٢٠	٪٧,٩	٪٩,٧	٪٠,٩
زغرتا ـ الزاوية	٪٣٢,٢	٪٢٦,٧	٪١٣,٦	٪٤,٤	٪٢١	٪٢,١
عكار	٪٣٤	٪١١,٢	٪٢٠,٣	٪١٧,٣	٪١٣,٣	٪٣,٩
طرابلس	٪٣٠	٪٢٢,٥	٪١٤,٦	٪٥,٨	٪٢٣,٥	٪٣,٦

ان ما يسترعي انتباهنا في هذه الاجوبة هو النفور النسبي من حلقات المنوعات، حيث ان هذه الحلقات غالبا ما يتعلق بها المشاهد بشدة او، على العكس، ينفر منها بشدة. بالمقابل فلا تحظى الحلقات الاجتماعية والسياسية بنسبة النفور نفسها وذلك ما هو ايجابي.

اما فترات الاخبار فهي تبلغ، اذا ما قارناها بالجدول السابق، أقل نسبة في المحبين وأقل نسبة في الكارهين، أي انها مدعاة اللامبالاة العامة. فالمشاهد هو مواطن، والمواطن قد سئم الاخبار، بكل بساطة. ولا عجب في ذلك بعد سبع سنوات من الزيارات والموفدين والتعليقات والاستنكارات الفارغة والمشاريع التي لا ترى النور، غير ان هذه النسبة هي قابلة للتغيير.

اما بالنسبة للتوزيع الجنسي في مسألة الاذواق فقد تبين ان التلفزيون استطاع، هنا أيضا، توحيد مشاهديه. فلا تفاوت يذكر بين ذكر وانثى، هذا ما تبين لنا خلال تحليل عينة صغيرة (اخترناها عشوائياً) تتعلق بالحلقات التي يفضلها المشاهدون في قضاء الكورة.

ان المعدل العام للحلقات التي يفضلها المشاهدون، حسب التوزيع الجنسي، هو التالي :

فئة	أ	ب	ج	ذ	هـ	و	المجموع
ذكور	٪١٢	٪٤٥,٣	٪٢٦,٧	٪١,٣	٪١٠,٧	٪٤	٪١٠٠
إناث	٪٩,٥	٪٥٠,٥	٪٢٥,٧	٪١,٩	٪١٠,٥	٪١,٩	٪١٠٠

ماذا نقول في النهاية ؟

١ ــ ان الجداول التي شاهدناها واضحة : لقد تغلبت وسيلة الاعلام التلفزيونية على باقي وسائل الاعلام، ولا بد لنا من ملاحظة هذا الواقع السوسيولوجي الجديد.

٢ ــ لقد تشكل مشاهد نموذجي تتطابق اذواقه مع ما يسكب له في صحنه التلفزيوني اسبوعياً.

٣ ــ تحولت مشاهدة التلفزيون الى صلاة المساء عند الفرد بصفة عامة.

٤ ــ يتشكل عبر التلفزيون عدد من المعارف لا بأس به ينبغي تحليله.

حول معارض الكتاب وعبرتها

تشكل معارض الكتاب في لبنان حاليا ظاهرة اجتماعية بكل معنى الكلمة. فهي تشهد تفاعلا بين دار النشر والكتاب المعروض والزائر ــ الذي لا يتحول بالضرورة الى شار. فبصرف النظر عن كون الزائر شارياً ام لا، هناك علاقة جدلية تتحكم بعلاقة هذه العناصر الثلاثة يلعب فيها العنصر الخارجي دوراً حاسماً. ينبض بهذه العلاقة، التي يريدها العارض داخلية، قلب معادلة الظروف الخارجية، اذا انها تؤكد على كون المعرفة نتاجا لتفاعل العلوم مع بيئتها الاجتماعية والاقتصادية.

هموم الزائر ــ وهي بالطبع سابقة للمعرض ــ هي التي تتحكم بعملية الشراء أو بعملية الامتناع عن الشراء. لذلك فالمعرض يعكس، من الناحية السوسيولوجية، المناخ العام الذي يتقلب فيه المجتمع الذي يستضيفه. وسنحاول من هذا المنطلق، القاء بعض الاضواء على معرضين اقيما في الشمال مؤخرا، في طرابلس وفي الجديدة (قضاء زغرتا) تحديدا، لما فيهما من عبر ثقافية ونفسية ــ اجتماعية، حيث ان دور المؤثرات النفسية ــ الاجتماعية لا يقل اهمية عندنا عن دور المؤثر الثقافي (والتعليمي تحديدا) في بناء علاقة الزائر بالمعرض وبالكتاب.

نبدأ اولا بزيارة المعرض قبل ان نستعرض، فيما بعد، زيارة الكتب، حيث ان الزائر يزور المعرض كمعرض، ثم يزور الكتاب، ولكل من هاتين الزيارتين خصائصها ومميزاتها.

زيارة المعرض ترتدي طابع التظاهرة، فاللقاء غالبا ما يكون جماعيا. نحدد موعدا مع اصحاب او اهل او زملاء ونتوجه، في اليوم المحدد، الى المعرض، مثلنا في ذلك مثل من يذهب الى مهرجان. نصل الى المعرض واول ما يلفت انتباهنا ان الموجودين هم كبار وصغار ورجال ونساء، فاللقاء بالكتاب في المكتبة والذي يرتدي الطابع الفردي ــ المحبَّب عادة بالنسبة للمثقفين ــ يختلف هنا. انه لقاء شعبي. ولهذه المفارقة دلالة هامة.

نشير هنا الى ان ٣٠ ٪ من زوار معرض طرابلس كانوا من الاناث و ٧٠ ٪ من الذكور، اما في معرض الجديدة فقد بلغت نسبة الاناث ٥٢٪ ونسبة الذكور ٤٨٪ . الفارق في النسب له اسبابه الاجتماعية، لكن المهم هنا هو ان الاختلاط موجود وانه، الى جانب الكثافة، يعطي للمعرض طابع المهرجان الشعبي. مهرجان، لكن الخطباء فيه صامتون.

ويتأكد طابع المهرجان مع طغيان عنصر الشباب على المعرض. فقد بلغت (حسب احصاء اجراه معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية في الشمال) نسبة فئة الاعمار دون الـ ٢٥ سنة في معرض طرابلس ٧٠ ٪ عند الذكور و ٧٩ ٪ عند الاناث، من مجموع زوّار المعرض. مما يضفي على هذا الاخير طابع الشبيبة.

يصبح بذلك معرض الكتاب مهرجانا شبابيا تباع فيه الكتب. وميزة غلبة عنصر الشباب انه يبرز في معرض الكتاب ليس نخوة الشباب كما نعتقد للوهلة الاولى بل Tempo (اي « زمن ») هذا الشباب كما يقال في لغة المسرح والنقد المسرحي، اي بكلام اخر المناخ العام الذي يعيشه هذا الشباب.

فانعكاس مناخ الشباب الفكري والنفسي ــ الاجتماعي ينعكس مباشرة على المبيعات، حيث يحصل امران : اما يكثر عدد الزوار،

هواة الزيارة الصرف، واما يكثر عدد الزوار الشارين. من هنا فالتسرع في اطلاق الحكم او اقتصار هذا الحاكم على الناحية التجارة قد يغيب هذا البعد الاجتماعي الموضوعي. فاذا كان بعض الشباب لم يرغب في شراء كتب فلهذا التصرف اسبابه. الا ان المهم هو ان الشباب هذا يحتفظ بحقه في هذا المجال بحكم الاستمرارية، استمرارية قيامه بالزيارة العفوية للمعرض.

تستحق كثافة عنصر الشباب في معارض الكتاب وقفة قصيرة. فالمعرض الذي يرتدي طابع المهرجان، مهرجان ليس في الشارع بل داخل جدران، يعوض الى حد بعيد عن هذا التقليد الشبابي الذي كان رائجا في بلادنا قبل الحرب. فالشباب الزائر يبحث عن تضامن مع الاخرين في مشروع ايجابي وهام. من هنا هذا القدوم الغريزي السليم الذي يميزه، والذي لا يرتبط بالضرورة بعملية شراء. فالمشاركة في المعرض هي بحث عن جزء من الهوية وهي الاهم في نظره.

يبدأ هنا شراء الكتب. وهذه العملية، التي هي في الاساس عملية يتراءى لصاحبها انها فردية، تتسم بالطابع الجماعي. حيث ان حصيلة المبيعات تدلنا، مباشرة، على الاطر العامة التي يدور في فلكها فكر الجماعة.

فالملفت للانتباه، في معرضي الكتاب في طرابلس وفي الجديدة، انهما شهدا شغفا بكتب الاطفال لم يسبق له مثيل. بلغت نسبة مبيعات معرض طرابلس في صنف كتب الاطفال ٣٢ ٪ (وهي ارفع نسبة)، اما في معرض الجديدة فقد بلغت هذه النسبة ٣٥ ٪ (وهي ايضا ارفع نسبه في المبيعات).

هكذا يلتقي المعرضان، بالرغم من اعتقاد اهل كل من طرابلس ومنطقة زغرتا ــ الزاوية انهما قد يكونان على موجات مختلفة، على ان الاولوية في المبيعات ذهبت لعنصر كتب الاطفال. مما يشير،

اولا، الى ان معرض الكتاب، حيثما اقيم، يطغى عليه الطابع الانساني، وهذا شيء رائع يؤكد على اصالة هذه التظاهرة الاجتماعية، ثانيا يشير ذلك الى ان الهموم الثقافية والاجتماعية واحدة مهما كانت الالوان الطائفية مختلفة والمناطق متباعدة.

فالطفل، هنا وهناك، هو امير المعرض.
ما سبب ذلك ؟

في الحقيقة ان الاسباب عديدة. اولها ان الطفل هو، باعتراف الجميع وفي كل المناطق، الضحية الاولى لحروبنا الصغيرة والكبيرة. والذين ابتاعوا كتب الاطفال، في اغلب الاحيان، حسبما صرح لنا به العارضون، هم الاهل. ليس في ذلك صدفة، فالجميع يصبون الى اسعاد الاطفال. واحد تجليات هذا الشعور هو محاولة التعويض على الاطفال عما خسروه من رحلات ونزهات وزيارات للطبيعة، بالكتب. فطالما ان الطفل محكوم عليه ان يبقى اكبر قسط من الزمن داخل المنزل فعلى الاقل ان يكون هذا الواقع اقل ايلاما. ولا يخفى ان مهمة الكتاب المصور هي في كونه يسمح بمشاهدة الخارج من داخل المنزل. كما انه يسلي الطفل ويخفف من ضغط الحيطان النفسي بالهروب عبر الخيال.

اما السبب الثاني فهو معرفي الطابع، حيث ان حضارة الاساليب السمعية ــ البصرية وعلى رأسها التلفزيون قد روجت الى حد كبير محبة الصورة، وهي عنصر اساسي يعتمد عليه كتاب الاطفال. فالارتياح المسبق لهذا الاسلوب يجعل من الطفل الشاري او من الطفل الذي اشترى له اهله كتبا تملأها الصور انسانا يشغف بها ويفرح لها.

يتمثل السبب الثالث في كون كتب الاطفال كتبا ذات سعر منخفض نسبيا، خاصة اذا ما قيست بكتب الكبار. فشراء عدة كتب

من هذا الصنف يبقى في متناول جيب معظم الفئات الاجتماعية.

هذه الاسباب مجتمعة جعلت كتب الاطفال تحتل الاولوية في مرتبة المبيعات في كل من المعرضين اللذين ذكرنا.

اما الصنف الثاني الاكثر مبيعا في المعرضين، وهو كتب الاداب واللغات، والذي بلغت نسبة مبيعاته ١٨ ٪ في معرض طرابلس و ٢٨ ٪ في معرض الجديدة، فله دلالة مشابهة. انه يدل كم ان الثقافة الادبية هي طاغية في مجتمعاتنا. فهذا التقليد القديم يغرس جذوره في نمط الثقافة المكتوبة التي ورثناها عن اجدادنا. فكتب اللغة والقصص ودواوين الشعر ما زالت تستقطب عددا وافرا من القراء في جميع المناطق. ولكن الملفت للانتباه ان كتب هذا الصنف الاكثر مبيعا ليست الكتب الحديثة، بل الالوان الكلاسيكية ككتب جبران خليل جبران وتوفيق يوسف عواد ومؤلفات نزار قباني الشعرية. وغابت الادبيات ذات الطابع الاجتماعي الحديث عن عملية الشراء بشكل ملحوظ، وذلك بالرغم من توفر البعض منها ومن جهود الترجمة التي بذلتها بعض دور النشر في هذا المجال.

فشراء المؤلفات ذات الطابع الادبي غالبا ما جاء بتأثير من الثقافة المدرسية التي درج عليها الزوار. وهذا ما ابقى كتب هذا الصنف في اطار نظرة للاداب محددة، تلك التي اعتاد الطالب على تذوقها على مقاعد المدرسة.

كما ان الارتباط واضح بين هذا التقليد والبنى التقليدية السائدة في كل من طرابلس وزغرتا ــ الزاوية. فالثقافة الادبية تنسجم تمام الانسجام مع المجتمع التقليدي في لبنان وفي غير لبنان. فعندما يتمفصل المجتمع على نظام اقتصادي صناعي وتكنولوجي تختلف هذه النزعة فيذهب اهتمام القراء الى الادبيات الاجتماعية الحديثة او الى الادبيات السياسية او الى اذواق جديدة نابعة من العلوم

التكنولوجية وكل ما يتفرع عنها. اما في المجتمع الذي يطغى قطاع الخدمات على نظامه الاقتصادي فالبنية الاجتماعية ساكنة وتعمل على تعميق هذا السكون باللجوء التقليدي الى الادبيات التي سرعان ما تدخل التراث بعد جيل او جيلين.

من هنا يمكننا ان نقول ان المعرضين قد عكسا، في المنطقتين، الهم الانساني نفسه (مشاركة الاطفال معاناتهم ومحاولة تنفيسها باللجوء الى الكتب المصورة) والبنية الاجتماعية نفسها (البنية التقليدية). لذا، فان اختلفت العجينة، كما يقول المثل، فان الطينة لم تختلف. بل ان ثوابت هذه البنية هي واحدة في هذين العنصرين. وهذا شيء ربما كنا لم نعترف به لولا هذا الاستفتاء الثقافي الذي اجراه عفويا معرض الكتاب هنا وهناك.

ايعني ذلك الانسجام التام ؟ طبعا، كلا.

فالانسجام موجود في عنصرين اساسيين لكنه ليس مكتملاً وتاماً. فلو استعرضنا نسبة المبيعات، حسب الصنف، نلاحظ ان مدينة طرابلس تعيش نزعة تديّن حادة. فنسبة مبيعات الكتب الدينية فيها تأتي في المرتبة الثالثة (١٥ ٪) وعدد لا بأس به من الكتب الاكثر مبيعا، حسب فئات الاسعار، يمكن تصنيفه في الكتب الدينية. والدلالة في ذلك هي في ان مدينة طرابلس، مثلها مثل عدد كبير من المدن العربية، تعيش نزعة دينية طبيعية اذا ما قيست بلجوء الناس الى الدين بعد افلاس عدد كبير من النظريات السياسية والتي كانت تهدف الى تغيير الواقع ولم تستطع تجسيد مشاريعها، بل تعثرت هذه الاخيرة واصبح بالتالي اللجوء طبيعيا اما الى اليأس واما الى الخيال.

كما تبين ان صنف « المنوعات » الذي احتل المرتبة الثالثة في معرض الجديدة، خلافا لمعرض طرابلس حيث احتل المرتبة الرابعة بلغ، بالرغم من هذا الفارق في الترتيب، النسبة نفسها، اي ٩ ٪ من

مجمل المبيعات. وهذه نقطة التقاء اخرى، حيث ان الاختلاف في المرتبة قد محاه الالتقاء في النسبة. وتجدر هنا الاشارة الى ان هذه النسبة محترمة لكونها تبلغ حوالي عشر المبيعات.

اما التوجه نحو كتب « المنوعات » فيجد تفسيره في كون ان هذه الكتب تهم غير المثقفين بصفة عامة. فمعرض الكتاب لا يستقطب المثقفين وحدهم، وهذا شيء جيد. فالجميع يأتون الى المعرض بهدف ايجاد ما يتناسب مع اذواقهم. وربات البيوت او ذوو المهن المتفرقة لا تستهويهم بالضرورة كتب الاقتصاد او السياسة. فالمنوعات صنف يجد فيه عدد لا بأس به من الزوار ما يشده اليه (كتب الطبخ، كتب الصيد، كتب تنسيق الزهور او كتب الغرائب)، مبيعات هذا الصنف المرتفعة تدلنا على ان الهموم غير الحربية ما زالت على قيد الحياة، بالرغم من زمن الحرب. فالقراء يبحثون في هذه الكتب عن اساليب تحسين تجارب حياتهم اليومية وهواياتهم. وربما ارتفعت مبيعات هذا الصنف اكثر في ظروف السلم والامن، غير ان بلوغها نسبة ٩ ٪ يشير الى انها تأكيد غير مباشر على كون الناس مشدودين الى الحياة الطبيعية.

وهذا الشعور القوي وتلك النزعة السوسيولوجية الاكيدة تجد ما يؤكدها عند الجميع، في المدينة الساحلية وفي عمق المناطق. فالكل يلتقي على اذواق ثابتة (الصنف الادبي) ومشاعر ثابتة (مشاركة الاطفال معاناتهم وهواية الحياة الطبيعية). وفي هامش هذا الالتقاء الواسع مجالات كبيرة للعيش المشترك.

ذلك اننا اذا جمعنا نسب هذه المؤشرات نلاحظ ان هامش الانسجام فيها كبير. يبلغ وفاق الكتب في الاصناف الثلاثة التي ذكرنا (اداب، كتب اطفال، منوعات) ٥٩ ٪ عند سكان المدينة الساحلية و ٧٢ ٪ عند سكان عمق المنطقة. ولهذا الانسجام عبرة سياسية

اكيدة. حيث ان الناس يشبهون بعضهم في عمق مسلكهم الثقافي. لا تفرق بينهم الاذواق الثقافية (ولا الاجتماعية وهذا ما سنبينه في مقال لاحق). لكن التصورات الخارجية والتي يُطلق عليها عادة اسم التصورات الايديولوجية، اي المركبة والمستندة الى مصالح معينة هي التي توهم الناس بأنهم مختلفون.

ولتدعيم هذا الامر هناك مثل اخر يمكن ادراجه في سياق التحليل. فقد يلفت انتباه المراقب ان نسبة مبيعات الكتب الاجنبية قد اختلفت بشكل ملحوظ بين معرضي طرابلس والجديدة. فنسبة الكتب المباعة والمؤلفة باللغات الاجنبية بلغت ٢٤ ٪ في طرابلس، اما في الجديدة فقد بلغت ٣٩ ٪ اي ان الفارق هام، ذلك انه يبلغ ١٥ ٪.

يمكن النظر الى هذا الامر بشكل ايديولوجي والاستخلاص منه، بقليل من التسرع، ان هناك فرقاً وحضارياً بين منطقة ذات غالبية اسلامية ومنطقة ذات غالبية مسيحية، ذلك ان القفز بين هذين المفهومين (الثقافة والحضارة) يتم عند البعض، في بلدنا، بسرعة البرق الا اننا، في الحقيقة، اذا دققنا في المعلومات المتعلقة بهذه المسألة وامعنا في تحليلها نلاحظ ان عكس ذلك هو الصحيح وان الواقع الموضوعي هو غير الواقع الذي نبنيه باللجوء الى الخيال والافكار المسبقة.

فالشيء الذي يلفت الانتباه هو ان اصناف الكتب الاكثر مبيعا في معرض الجديدة هي واحدة باللغتين. مما يدل على ان الاهتمام الثقافي هو واحد بالرغم منِ تجليه في تعبيرين لغويين مختلفين. فالكتب الاجنبية الاكثر رواجاً، تقع، في طرابلس كما في الجديدة، في صنفي كتب الاطفال والاداب. مما يعيدنا الى نقطة الانطلاق السابقة.

لذلك فعمليات الاقحام الايديولوجية تجد في واقع الارقام ما ينفيها من جهة، وما يؤكد عكسها من جهة اخرى. فاللغة الاجنبية لا

توجد الاذواق الثقافية الجديدة، بل انها تنصاع، بحكم الطبيعة، للذوق الاجتماعي السائد. فاللغة الاجنبية تتبع الذوق المحلي وتجري وراءه. وليس العكس. ولا عجب في ذلك حيث ان الحضارات لا تستورد استيرادا، بل انها نتيجة تفاعل عناصر ذاتية بشكل اساسي. من هنا خطورة القفز من نتيجة معينة الى استنتجات عامة دون العودة الى المسبب الموضوعي الحقيقي.

يتابع هذا التناسق البنيوي مسيرته بين اذواق المنطقتين فيتأكد على صعيد الابتعاد عن بعض الاصناف المحددة كالاقتصاد والعلوم الاجتماعية والقانون والفنون.

مما يدل على ان هذه الاصناف — التي ليست مدرسية كالاداب مثلا، بل جامعية — لا تزال في اطار طالبي. فاهمية كتب هذه الاصناف، والتي هي متوفرة بشكل معقول، لم يتم وعيها بعد على صعيد غالبية القراء. فهي، مجموعة، لا تبلغ ٥ ٪ من مجموع المبيعات. ان في ذلك لمؤشرا سلبيا، حيث ان الوعي عندنا، بصفة عامة، وعي ادبي كلاسيكي، مدرسي الطابع، بالرغم من كل ما تبذله من جهود بعض دور النشر والصحف والمجلات التي تحاول ابدال الوعي القديم، المرتبط كما اشرنا ببنية وعي تقليدية، بوعي اجتماعي واقتصادي حديث.

لكن يبدو ان الطموحات النهضوية التي ما زالت تحرك العديد من المتنورين تلقى صعوبات جمة في عملية خرق جلد الشكل الادبي. اما الذين يبتاعون كتب الفكر هم نسبيا كثيرون (٥ ٪ في معرض طرابلس و ٣ ٪ من معرض الجديدة)، بمعنى ان كتب هذا الصنف تلقى من يشتريها في اكثر من فئة اجتماعية.

من هنا يجد بعض النقاد ان معارض الكتاب عندنا هي معارض

تحاول ان تماشي القارىء اللبناني في اذواقه في المطالعة، حتى ولو كانت تلك ستاتيكية المنحى. فمعارض الكتاب تعرض اكثر فاكثر على الزوار الذين يبحثون عن الاصناف السهلة (اداب، كتب الطفل، الخ) الكتب العائدة لهذه الاصناف. حيث انها تؤكد في النتيجة، لأغراض تجارية طبعا، على الاذواق السهلة، اي المعممة والموروثة عن الاجيال التي سبقتنا. من هنا سلبية التعاطي مع القراء، حيث ان كتب الاصناف الصعبة، اي الجامعية، تختفي بعد فترة عن الرفوف والطاولات لتحل محلها الاصناف الاكثر مبيعا.

وهذا التعاطي الميكانيكي مع الامور يجعل توجه الزوار الطبيعي نحو الاصناف السهلة يلتقي مع توجيه العارضين غير المباشر، حيث يتأكد، بعد فترة، الذوق الادبي المدرسي خلافا لسواه من الاذواق، فيصبح دور معارض الكتاب تكرار ما هو موروث وليس الحث على اكتشاف ما هو جديد.

يبقى ان معارض الكتاب، بالرغم من تساهلها مع هذا الموضوع، تلعب دورا ايجابيا جدا. فتعود الناس على زيارتها مؤشر ايجابي يؤكد حيوية تقليد مصادقة الكتاب عندنا. وبما ان كل شيء، في نهاية المطاف، هو تعود، كما يقول باسكال، فان المستقبل يمكن ان يشهد توجيها افضل لمعارض الكتاب، كجزء من توجيه افضل للتعليم ككل وللوعي ككل على صعيد مؤسسات الاعلام والتربية. فالمهم في المرحلة الراهنة، هو ارتياد المعارض والعمل على ان تستمر. ذلك ان هذه العملية الثقافية هي جزء من الصمود العام. فاذا صمدنا على الصعيدين الانساني والثقافي نزداد صمودا على الصعيدين السياسي والوطني.

كما ان ايجابية معارض الكتاب تكمن في انها، اذا عملنا على استخلاص دروسها، تشير دون تردد الى ان عناصر البنية الثقافية في

المجتمع اللبناني هي واحدة. فالنزعات المخالفة لهذا القانون هي عابرة حيث انها تنبع من مصدر ايديولوجي. اما العناصر الاساسية فهي ثابتة وواحدة عند الجميع، مهما اختلفت المنطقة ومهما كان اللون الطائفي او المذهبي مختلفا بين مكان اقامة هذا المعرض وذاك.

معارض الكتاب، كالتي اقيمت في طرابلس والجديدة، معارض اصيلة. (لا نأتي على ذكر المعارض الاخرى لاننا لم نستطع دراستها بشكل دقيق ولكنها دون شك اصيلة هي ايضا).

كما ان ايجابية معارض الكتاب التي تقام خارج العاصمة تكمن في انها تشير الى ان وعي اهمية دور الكتاب في الحياة اليومية يزداد ويتعمم. مما يبشر بالخير، ذلك ان الهوة التي تفصل بين العاصمة والاطراف تشهد عمليات ردم سنوية وناجحة.

ايجابية معارض الكتاب، اخيراً، هي في انها جامعة. فالمعرض الذي يُقام هنا والمعرض الذي يُقام هناك يقرب الناس من حيث لا يدرون. إن هذه العملية الخفيّة التي تحصل والتي لها، ولا شك، طابع بنيوي، هي رصيد هام بالنسبة للمستقبل. فمناخ المعارض واحد. لذلك فهي، موضوعيا، عنصر تقريب بين الجميع من حيث كونها، اينما اقيمت، تؤكد على ان الانسان يأتي قبل كل شيء، وان المشاعر الانسانية هي المحرك الاساسي عند الجميع.

مبيعات المعرض العاشر للكتاب في طرابلس (حسب الصنف)		مبيعات المعرض العاشر للكتب الجديدة ــ قضاء زغرتا ــ (حسب الصنف)	
كتب الاطفال	٣٢ ٪	كتب الاطفال	٣٥ ٪
آداب ولغات	١٨ ٪	آداب ولغات	٢٨ ٪
كتب دينية	١٥ ٪	منوّعات	٩ ٪
منوّعات	٩ ٪	تاريخ	٧ ٪
فلسفة وفكر	٥ ٪	كتب دينية	٦ ٪
تاريخ	٤ ٪	فلسفة وفكر	٣ ٪
سياسة وعلوم سياسية	٤ ٪	علوم سياسية وسياسة	٣ ٪
علوم وصحة	٣ ٪	علوم وصحة	٢ ٪
موسوعات ومعاجم	٢ ٪	موسوعات ومعاجم	٢ ٪
علم النفس والتربية	٢ ٪	علوم اجتماعية	١ ٪
تراث	٢ ٪	تراث	١ ٪
علوم اجتماعية	١ ٪	قانون	١ ٪
اقتصاد	١ ٪	علم النفس والتربية	١ ٪
قانون	١ ٪	اقتصاد	١ ٪
فنون	١ ٪	فنون	أقل من ١ ٪

المصدر : احصاء اجراه معهد العلوم الاجتماعية ــ الفرع الثالث في الجامعة اللبنانية.

لا للتعددية الثقافية، نعم للتنوع الثقافي

— ١ —

كثر استعمال كلمة التعددية في الآونة الأخيرة بشكل يلفت الانتباه. ولكن ما يلفت أيضاً الانتباه هو أن هذا الاستعمال لم يتلازم مع تحديد دقيق لمحتوى هذا المفهوم. فالتعددية كلمة عامة جداً، أتتنا من تجارب الغرب في الحقلين السياسي (التعددية السويسرية) والنظري (التعددية الأميركية). أما استعمالها في لبنان فغالباً ما يترافق مع صفتي « الثقافية » و « الحضارية » وهنا أيضاً دون أن يُحدد المقصود بالثقافة والحضارة. لذا فهنالك حاجة لوضع النقاط على الحروف.

١ ــ ألاحظ، قبل كل شيء، أن المقصود بالتعددية الثقافية في لبنان هو تعددية الطوائف ولا شيء آخر. لهذه الكلمة بالتالي دلالة سياسية واضحة.

أفضل، من ناحيتي إذاً، أن تستعمل كلمة التعددية الطائفية بشكل صريح للدلالة على هذا الواقع الذي يعترف بوجوده الجميع، وللدلالة على معانيه السياسية، وألّا نستعملها للتكلّم عن الموضوع الثقافي الذي هو أغنى من أن يُحصر في أطر سياسية جامدة.

فليستعمل السياسيون، بلا مواربة كلمة التعددية الطائفية، وليدعونا نستعمل نحن كلمة التنوع الثقافي.

في الحقيقة أن كلمة التعددية لا تنطبق على الواقع اللبناني، حيث أن ما هو موجود على الأرض هو تنوّع ثقافي. فكلمة تنوّع تعني

الاختلاف في التوجه الثقافي، ولا تعني التناقض. ذلك ان الثقافة في لبنان، واحدة[1] أما التوجه التعليمي فهو مختلف. لذا، فمن الأفضل التكلّم عن تنوّع في الثقافة، والمحافظة بذلك على الوحدة القائمة على هذا الصعيد، وعدم اللجوء الى استعمال مفهوم « التعددية الثقافية » الذي يقطع الجسور بين طرفي المعادلة الاجتماعية.

أشير هنا الى أن تاريخ جبل لبنان وتوجهه الغربي خلال النصف الثاني من القرن الماضي والنصف الأول من هذا القرن قد أدخل على التوجّه الثقافي عند أبناء هذه المنطقة مميزات أكيدة. ولكنهم، بالرغم من ذلك، يبقون « لبنانيين »، خاصة عندما يذهبون الى أوروبا ويمضون فيها بعض الوقت، حيث يشعرون بغربتهم وبتميّزهم الاجتماعي ــ الثقافي عن لأوروبيين ؛ فيعودون بسرعة الى بلدهم.

وهذا ما يفسّر، بالمناسبة، تنافر الأشخاص على أساس طائفي في لبنان والتقاءهم الحار في بلدان الهجرة. فاللُحمة اللبنانية (وهي لحمة اجتماعية ــ ثقافية قبل كل شيء) هي أقوى من أي لُحمة في الجاليات اللبنانية خارج لبنان. مما يعني ان الأساس الثقافي هو واحد. فلو لم يكن كذلك لتفرّق اللبنانيون أكثر في بلدان الغربة ولما شاهدنا هذا التقارب الذي يميز جالياتنا في الخارج.

مثال آخر هو مثال الأذواق الاجتماعية والثقافية (يطلق عليها الأميركيون اسم النماذج).

وهذا ما إتضح لنا بعد إجراء بحث ميداني حول الانتشار التلفزيوني في لبنان الشمالي. ففي جميع أقضية محافظة الشمال مثلاً، على اختلاف ألوانها الطائفية (الكورة، البترون، بشري، زغرتا، طرابلس) نلاحظ أن مشاهدة البرنامج الثالث تبلغ نسبتها أقل من

٣,٨ ٪. فالغالبية الساحقة تفضل البرامج الناطقة بالعربية. كذلك فان غالبية المشاهدين، في جميع الأقضية، تفضل المسلسلات العربية والمسرحيات المصرية، ثم المسلسلات الأميركية والفرنسية. كما اننا نلاحظ أيضاً ابتعاداً مشتركاً عن برامج التسلية والمنوعات الغربية والعربية، عند الشماليين بصفة عامة. فالأذواق الثقافية لا تعترف بحدود الاعتبارات الطائفية.

— ٢ —

الثقافة اللبنانية، قبل كل شيء، هي غير ثقافة الطوائف اللبنانية. يمكن تقسيمها الى قسمين :

١ — الشق الاجتماعي منها.

٢ — والشق المتعلّق بالمسألة التعليمية.

الشق الأول من هذه الثقافة حاصل ومتبلور، بحكم وحدة نسبية في التقاليد الريفية وبفعل الانصهار البيروتي حتى عام ١٩٧٥.

أما الشق الثاني فهو الشق الذي لم يتحقق بعد. ويعود ذلك الى عدم وجود دولة حديثة في لبنان تستطيع، عبر أجهزتها ومؤسساتها، ان تفرض تعليماً واحداً (كما حصل في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر).

لكن عدم اكتمال الوحدة على الصعيد التعليمي لا ينفي صحة الشق الاول، المتبلور أساساً على الأرض. غير أنه نقطة الضعف الاولى في البنيان اللبناني. وهنا تقع مسؤولية العنصر الخارجي الذي لعب ولا يزال يلعب دوراً معوقاً في هذا المجال. فالخارج يعمل على تعميق الهوّة على الصعيد التعليمي، بشتّى الأشكال، كي يتناسب الوضع الطائفي القائم على الصعيد السياسي مع مصالحه المختلفة.

فمن عدم اكتمال الشقّ الثاني من موضوع الثقافة ينطلق مفهوم

التعددية الذي يهدف الى تعميق الهوّة، لا الى محاربتها. فهو مغلوط في الأساس، حيث أنه ينطلق من فرضية غير صحيحة وغير أصيلة. وبالتالي فإن النتيجة التي يتوصل اليها هي بدورها مغلوطة. ذلك اننا لو انطلقنا من وحدة الثقافة الاجتماعية يستحيل علينا التوصل الى مفهوم كمفهوم التعددية الثقافية والحضارية. أما عندما ننطلق من عدم تحقيق الوحدة الثقافية — التعليمية فيسهل التوصل الى التعارض التام، وحتى التناقض بين ثقافات تبعد عن بعضها ٥٠ كيلومتراً على الأكثر وغالباً بضعة كيلومترات فقط !.

من هنا فان مسألة التعددية الثقافية ليس لها أساس موضوعي. ليس هناك من فروقات عرقية وثقافية بين اللبنانيين كي نتكلم عن تناقض في الثقافات. كل ما هنالك تنوّع في التوجه الثقافي، بسبب العنصر الطائفي بالذات. لكن العنصر الطائفي، مهما بلغ من الأهمية ومن الانتفاخ في الآونة الاخيرة يبقى ثانوياً وغير اساسي على الصعيد الاجتماعي الموضوعي.

إن الثقافة اللبنانية — في شقيها الاجتماعي والتعليمي — هي حالياً في حالة انقسام بحيث تسمح بالاستغلال السياسي. لكن هذا الانقسام مرحلي.

— ٣ —

أما وحدة لبنان فإنها تبدأ من هذه النقطة بالذات. تبدأ بمدّ الجسور بين العنصر الثقافي — الاجتماعي، الحاصل على الأرض، والعنصر الثقافي — التعليمي، الغائب ميدانياً.

عندها تتوحد الارادات والتوجهات، تتوحد النفوس والرغبات والأعمال. وتغيب الازدواجية المطلقة. حيث يمكنني أن أبقى لبنانياً، مع اتقاني للّغة الفرنسية أو الانكليزية. تماماً كما ان المستعرب الفرنسي يبقى فرنسياً بالرغم من تعمّقة بالثقافة العربية.

وحدة لبنان غير حاصلة. إنها مشروع بناء ينتمي موضوعياً الى المستقبل.

وحدة لبنان رهن بقيام دولة حديثة، بأجهزة دولة حديثة، بوزارة للتربية قوية وحديثة، بجهات رسمية تعمل على استئصال سموم التقسيم الطائفي على الصعيد الثقافي ـــ التعليمي.

وعلى الصعيد الموضوعي أيضاً وأخيراً يتساوى التشاؤم والتفاؤل. فبقدر ما هي بذور التباعد موجودة على الصعيد التعليمي، فإن بذور التلاقي موجودة على الصعيد الاجتماعي.

(١)ان الثقافة، بالمعنى السوسيولوجي للكلمة لا تقتصر على عملية إنتاج الأفكار. بل انها تشمل أيضاً التقاليد الاجتماعية وتصور الكون المشترك والذهنية والنماذج الثقافية والاجتماعية.

الاصالة والزيف في المفاهيم الثقافية

سأبدأ بمعالجة الموضوع بالكلمة التالية التي تلّخص موقفي الفكري من هذه المسألة : يستحيل على مطلقي كلمة « التعددية الثقافية » أن يكونوا لبنانيين حقيقيين، في نظرهم وفي نظر غيرهم، اذا لم يكونوا عروبيين مخلصين، واقصد بالعروبة المفهوم الثقافي منها بشكل اساسي. فتماما كما يستحيل على المحبة ان تتجزأ، يستحيل على المواطنية الحقة ان تتجزأ. فان كنت محبا لعائلتي فيعني ذلك انني أحب كل عضو من أعضائها، مهما كانت صفاته في عيني. اما اذا كرهت عنصرا أو أكثر فإني أكون قد اقمت الدليل على انني لا اعرف المحبة، مهما أطلقت على موقفي من مبرّرات. فالمحبّة والوطنيّة لا تتجزءان، كما انهما لا تمشيان على خطين موازيين، بل انهما تتجدّلان في ضفيرة واحدة.

فاللبنانيون الحقيقيون، أي المواطنون الذين ينتمون الى وطن اسمه لبنان يتميز بالتنوّع الطائفي والفكري هم الذين يحبون كل لبنان، ولبنان هو هذه المساحة الجغرافية التي تقدّر بعشرة آلاف واربعماية واثنين وخمسين كيلومترا مربعا. وهي ايضاً هذا المجال الثقافي الذي يتميز بعشرة الاف واربعماية واثنين وخمسين موقفا فكريا وثقافيا مختلفا. محبة الارض لا تعني شيئا دون محبة الواقع البشري القائم على هذه الارض. فالـ ١٠٤٥٢ كلم^{٢} ليست مفهوما جغرافيا فقط، بل وايضا مفهوما ثقافيا وسيسيا واقتصاديا. وأقول « ثقافي » اولا لان البُعد الانساني الاول يتمثّل في المجال الثقافي، ثم يتجلّى هذا البُعد في المجالين السياسي والاقتصادي.

وأتابع كلامي قائلا بأن في تاريخ لبنان الف مثال ومثال على مقوّمات العيش المشترك بين أبناء هذا البلد الصغير الكبير في تجربته. ولن أتطرّق الى المجال التاريخي ولا الى المجال الاقتصادي ءلاثبات امكانية هذا العيش المشترك، بل حيويته على صعيد الحياة اليومية. سأكتفي بتحليل ما يُطلق عليه اسم الواقع السوسيولوجي أي الواقع المعاش.

ان الذين ينطلقون من المثال اللبناني ليصرحوا بان فيه أكثر من بنية ثقافية ويعتمدون على هذه الفرضية النظرية ليؤكدوا مقولة سياسية معروفة هي مقولة التعددية الثقافية مخطئون لسبب وهو انهم ينطلقون من فرضيّة غير صحيحة. ففي لبنان بنية ثقافية واحدة، تدخل في تكوينها عناصر مختلفة نسبيا. لذا يعدو تحليلهم، القائم على فرضيّة خاطئة، غير صحيح من الناحية المنهجيّة.

وقد يتساءل البعض : لماذا في لبنان بنية ثقافية واحدة ؟

والجواب على هذا السؤال هو : لان هناك ثلاثة عناصر، موجودة على الارض، في لبنان، تثبت انتماءنا المباشر لهذه البنية الواحدة.

* في لبنان أولا بنية ثقافية واحدة لان رقعة الارض (أي المجال الجغرافي) صغيرة ومحدودة. ولا يمكن لثقافات أصيلة مختلفة ان تتعايش في حيزّ مكاني صغير. بل ان علماء الجغرافيا كانوا أول من اشاروا الى ما يسمى بالواحات الثقافية الناتجة عن التقارب الجغرافي بين المجموعات البشرية. وقد أطلق احد علماء الاجتماع الاميركيين ــ المعروف عالميا لكتاباته في هذا المجال وهو Pitirim SOROKIN الذي كان استاذ علم اجتماع المعرفة في جامعة Harvard - أطلق على هذه الظاهرة اسم « قانون الاندماج المكاني »، أي الاندماج الثقافي الناتج عن التقارب الجغرافي.

(**كتاب** **(Social and Cultural Dynamics, New York, 1937 - 1941**

* ثانياً، من ثوابت الحياة السياسية في لبنان ان حياته السياسية كانت واحدة منذ قرون طويلة، حيث ان مجموعاته البشرية كانت تتميز بعلاقات سياسية واحدة. لا أعني العلاقات بين المجموعات البشرية والطوائف فيما بينها، بل أعني علاقة هذه المجموعات والطوائف مع الحكم العثماني ثم مع سلطات الانتداب الفرنسي. ميزة هذه العلاقة، بالنسبة للجميع انها كانت علاقة خضوع لسلطة خارجية تعمل على اللعب على التناقضات الداخلية من أجل استغلال مقدّرات هذا البلد وثرواته. فنظام الضرائب كان واحدا بالنسبة للجميع. وردّات الفعل النفسية ــ الاجتماعية (والتي نطلق عليها اسم « عقلية اللبناني » باللغة العاميّة) على هذا القهر المادي جعلت من جميع سكان لبنان اناسا موحدّين ــ ولو سلبياً ــ في موقفهم من الحكم. فالطوائف اللبنانية كانت كلها عناصر في بنية العلاقات هذه، تختلف نسبيا فيما بينها ولكنها تخضع جميعها لقاسم مشترك واحد.

* العلاقات الاجتماعية الموحدّة هي، ثالثا، العنصر الثابت في البنية الثقافية اللبنانية.

أ) فالعائلة، مثلا، كانت تلعب الدور الاساسي ولا تزال على إمتداد الاراضي اللبنانية. فما هي المنطقة التي تستطيع ان تدعي انها لا تخضع لعائلة أو لتحالف عائلات، على الصعيد السياسي ؟ وذلك، إن دل على شيء، انما يدل على ان العائلة قوية عندنا لدرجة ان هذا الواقع سمح لها بان ترتقي الى الطموح الى لعب دور سياسي على الصعيد الوطني.

فالعائلة عنصر اساسي عند الجميع وفي جميع الطوائف دون استثناء.

ب) التقاليد ايضا واحدة. فتقاليد الطبخ شبيهة جدا بين المناطق اللبنانية. ولا يشعر أي انسان يتناول وجبة طعام في طرابلس أو البترون أو صيدا أو زحلة أو ريفون أو بيروت انه في منطقة تختلف ثقافيا عن

الاخرى. وتعبّر تقاليد الطبخ هذه من جهة عن ثروات زراعية وحيوانية شبه واحدة. كما انها تعبّر عن ذهنية واحدة كرسها المثل القائل « اللبنانيون يحبون العيش ».

ج) هذه التقاليد الريفية والموحدّة، والتي إنتقلت فيما بعد الى العاصمة بيروت لكونها مركز لبنان السياسي والاقتصادي والاداري، نجدها ايضا في مظاهر الحزن وتقاليد العزاء المتشابهة عند جميع اللبنانيين. فالتضامن الجماعي ـــ وليس الفردي ـــ هو الرائج عند الجميع في هذا المجال.

د) اما بالنسبة للاذواق الثقافية فهي ايضا واحدة. فحتى الذين يدّعون الانتماء الى الثقافة الغربية يشعرون فورا، عند وصولهم الى احدى بلدان الغرب كم ان ثقافة هذا الاخير تختلف عن ثقافتنا على الصعيد الحياتي... فيهرعون الى اماكن تواجد اللبنانيين.

وهنا ايضا يلاحظ الجميع ان روابط اللبنانيين، خارج لبنان، هي قويّة ولا طائفية. فالجاليات اللبنانية في الخارج تهزأ بخصومات اللبنانيين في لبنان (عن حق) وتعيش في إلفة ثقافية صافية، لا تعكرّها ضغوط من أحد. وتضامن اللبنانيين من جميع الطوائف خارج لبنان لهو الدليل الساطع على ان هناك اذواقا ثقافية واحدة، أصلية، تجمع بينهم. فلو كان الرابط الثقافي مجرد نزعة، لانتهز اللبنانيون من طوائف مختلفة فرصة إبتعادهم الطبيعي عن بعضهم (كونهم في بلد أجنبي) لتعميق الهوّة على صعيد علاقاتهم الاجتماعية. بل ان تقاربهم العفوي ليؤكد ان علاقتهم الطبيعية، الثقافية، هي واحدة وموحدة وليس العكس.

هـ) على الصعيد المعرفي نذكر ايضا الامثال اللبنانية التي تشكلت انطلاقا من الوعي الجماعي، خاصة في القرى، والتي تلعب دورا اساسيا في توجيه اذواق اللبنانيين عامة. فالامثال، وان أتت من

مصادر مختلفة كما لاحظه الدكتور انيس فريحة، غير انها رائجة بالقوة نفسها في جميع انحاء لبنان. وهذه الامثال هي الليرة الثقافية اللبنانية، ثقافة البنية الواحدة التي أفرزت عملة واحدة، لا عملتان أو ثلاث عملات.

و) إضافة الى ان هناك عنصر اللغة الواحدة التي تجمع بين جميع العناصر التي ذكرنا. فاللغة العربية إن اللغة الفصحى أو حفيدتها العاميّة ـــ هي اكثر من شكل. انها شكل ومضمون بمعنى انها تتميّز بانعكاسات مباشرة على الموضوع الذي يلجأ اليها للتعبير عن نفسه. لا أرى فرقا، في هذا الخصوص، بين جلسات الشعر في القبائل العربية القديمة وبين جلسات الزجل الرائجة في جبالنا. فاللغة تركت بصماتها على الاثنين من حيث الصور والنعوت واساليب التعبير والتعظيم التي تغلب، في نهاية المطاف، على الموضوع المطروح.

لهذه الاسباب مجموعة يستحيل علينا ان نتحدث، من منطلق سوسيولوجي، عن شيء اسمه « التعددية الثقافية ». فالبنية الثقافية اللبنانية بنية واحدة، ولنا، لذلك، ثقافة واحدة. إلا ان ميزة هذه البنية الواحدة انها تتضمن سلسلة ألوان ثقافية عائدة للتركيبة الطائفية اللبنانية، مما يؤدي الى تنوع ثقافي مميز.

ويمكن استثمار هذا التنوع الثقافي في اتجاهين :

الاول هو اغناء التجربة الثقافية الانسانية (التي هي ملكنا وملك العالم بأسره) حيث ان ميزة تنوع الثقافات، كما يقول الانتروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ـــ شتراوس (كتاب **العرق والتاريخ**)، هي في ان هذا التنوع يشكل حافزا للابتكارات الخلاقة، الجديدة والمجدّدة.

الثاني هو التشويه الثقافي والحث على التجزئة بشكل مفتعل. وهذا ما يقوم به حاليا انصار هذا المفهوم المؤدلج الذي هو مفهوم التعددية الثقافية.

فالصراع قائم اليوم بين هذا المفهوم الأخير وبين مفهوم التنوع الثقافي، الأصيل. وبما ان هذا الصراع يرتدي طابعا سياسيا علنياً فلا بدّ لنا ان نخاطبه باللهجة نفسها فنقول ختاما :

لا للتعددية الثقافية، نعم للتنوع الثقافي !